من لطائف
طرق القصر في القرآن الكريم

محمد السعيد بن سعد*

ملخّص: أسلوب القصر من الأساليب البلاغية الطّريفة، وهو باب من أبواب علم المعاني؛ أي المعاني الثّواني، عرّف بتخصيص شيء بشيء بطرق مخصوصة، جاء في نظم القرآن بغير الطّرق المألوفة عند البلاغيين ذلك ما حفّزنا لتناوله في بحثنا هذا، وقوفا على أسراره ولطائفه البلاغية من خلال هذه الطّرق.

الكلمات المفتاحية: القصر – القرآن – الطّرق – النّكت.

مدخل:

لا يزال القرآن الكريم بحرًا زاخرًا بأنواع العلوم والمعارف، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه للحصول على لآلئه ودرره الثمينة.

وهو إلى ذلك غنيّ من حيث أساليب القصر التي تدعو إلى التأمل وتبعث على الدرس، ناهيك من أن المتتبع لتراكيب وأضرب القصر يضع يده على عدد من المباحث اللّغوية: نحويّة وبلاغيّة، كالاستثناء، العطف، النّفي، الاستفهام، الإسناد، التّقديم وغير ذلك. ثم إن القصر باعتباره أسلوبًا يعدّ من ضروب الاهتمام بالمعنى من خلال دراسة الجملة والدلالة، ما يجعلنا نقول: إنّ للقصر فلسفة خاصة متميّزة متفرّدة تفرّد هذا الخطاب القرآني، من خلال ما ألفينا، بحيث بزّ القرآن القاعدة البلاغية، وقد أشار إلى ذلك الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور في تفسيره التّحرير والتّنوير.

فهلا كشفنا الغطاء عن بعض منها؟ ذلك ما نودّ تناوله في هذه الورقة.

القصر: عرّف القصر لغة بمعان كثيرة متقاربة تارة ومتباينة أخرى، فهو: الحبس والإلزام –وهذا الأصل فيه– تقول: قصرت نفسي على الشّيء، إذا حبستها وألزمتها إيّاه، ونقول: قصرت الشّيء على كذا، إذا لم تتجاوز به غيره، يقول الله سبحانه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، [سورة الرحمن، الآية: 72]، أي قد قصرن وحبسن على أزواجهن، فلا يتطلّعن ولا يطمحن لغيرهم.

وامرأة قاصرة الطّرف، لا تمدّه إلى غير زوجها، كأنها تحبس طرفها حبسا، قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾، [سورة الرّحمن، الآية: 56]، تسمّى مقصورة.

يطلق القصر على:

- قلادة شبيهة بالمخنقة لأنها تحبس في العنق (التّقصار).
- الدّار الواسعة المحصّنة بالحيطان (المقصورة).
- قصرت قصرا تقصيرا والقاصر، كلّ شيء قصير عنك.

- مقصر: الشّاة التي كفّ أطرف أسنانها، وقصرت وكفّت ثنيتها.
- القصر: كلّ شيء خلاف الطّول، والغاية، يقال: قصرك أن تفعل كذا وكفايتك وغايتك.
- ردّه وأرخاه، قصرت الأمر، وقصرت السّتر، إذا أرخيته.
- خلاف المدّ.
- من عروض المديد والرمل.
- وعلى غير هذا، وهو كثير في المعاجم مادة (ق.ص.ر)[1].

والقصر في اصطلاح علم المعاني: «تخصيص شيء بشيء، الشّيء الأولّ هو المقصور والشّيء الثّاني هو المقصور عليه، كتخصيص المبتدأ للخبر بطريق مخصوص كطريق النّفي والاستثناء في الآية الكريمة: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 185]، فالحياة الدّنيا مقصورة، ومتاع الغرور مقصور عليه، وحدث هذا التخصيص عن طريق النفي بـ: "ما"، وحرف الاستثناء "إلا"، (دال متقطع) "ما– إلا".

أطلق الزّمخشري مصطلح القصر على ما أسماه الجرجاني: «الخبر بالنفي والإثبات[2]»، واحتذى السّكاكي حذو الزّمخشري، فعرّف القصر بأنّه: «تخصيص الموصوف عند السّامع يوصف بدون ثان[3]».

وعرّفه المراغي بكونه: «تخصيص أمر بأمر بإحدى الطّرق...»[4].

المتأمّل في هذه التّعريفات يصل إلى أن معنى الحبس متضمّن في التّعريف الاصطلاحي، ذلك أن أسلوب القصر هو تخصيص صفة بموصوف لا يشاركها فيه موصوفون آخرون، بحيث لا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوفين آخرين، قال الشّاعر[5]:

أرى الأرضَ تبقى والأخلاء تذهب
إلى اللهِ أشكو لا إلى النّاسِ إنّني

بحيث قصر الشّاعر صفة الشّكوى على الله تعالى، فهي لا تتجاوزه إلى النّاس.

وقد يكون القصر بتخصيص موصوف بصفة لا تشاركه فيها صفات أخرى، بحيث لا يتجاوز الموصوف تلك الصّفة إلى صفة أخرى، يقول الشّاعر[6]:

هل الجود إلاّ أن تجود بأنفس
على كلّ ماض الشّفرفتين صقيل

هكذا قصر الشّاعر صفة الجود على الجود بالأنفس، فالمقصور هو المختصّ أو المحبوس أو الموقوف على شيء محدد، والمقصور عليه هو موضوع الاختصاص أو دائرة الحبس أو إطار الوقوف الذي يحتوي المقصور فلا يتعداه إلى غيره من الدوائر، إلا لما كان مقصورا.

فالجود بالأنفس في البيت مقصور عليه والجود مقصور ومختص ومحبوس والموقوف على شيء محدّد وهو الجود بالأنفس، والمقصور عليه، موضوع الاختصاص أو دائرة الحبس وإطار الوقوف الذي يحتوي الجود بحيث لا يتعداه إلى غيره.

كل هذا حدث بطرق مخصوص هو هنا في البيت الثاني طريق النفي والاستثناء "هل... إلا" –دال متقطع–[7]، إذ هل حرف استفهام مشرب بالنفي، أي غرضه النفي يرجع إلى أصل هذا الاستثناء لا... إلا أو

ما... إلا، طريق النفي والاستثناء رأس الباب والطريق الأم – السّكاكي يقدّم طريق العطف رغم طريق العطف لا يرقى بلاغة – الذي يقيسون عليه غيره يستعملونه في توضيح صورة المعنى وتحديد المقصور والمقصور عليه، فيقولون مثلا: إنّ قولك: "إنّما لك هذا" معناه؛ "ما لك إلاّ هذا"، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[سورة البقرة، الآية: 173]، معناه ما حرّم عليكم إلاّ هذا. وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة، الآية: 05]؛ أي لا نعبد إلاّ أنت. ودلالة البيت بلاغيا: "ما الجود إلا...".

إنّ جملة طرق القصر ك: "العصف" و"إنّما" دلّت على القصر لتضمّنها معنى النّفي والاستثناء، كما أنّ ظهور الدّلالة على القصر في هذا الطريق يكون قويًّا، فقصر الشّيء على الشّيء أو إثبات الشّيء للشّيء ونفيه عن غيره ينبثق عن هذا الطريق من جهة أنّك تسلّط النّفي في الاستثناء المفرّغ على مستثنى منه عام، وجه إفادة القصر أنّ الاستثناء المفرّغ يتوجّه النّفي فيه إلى مقر وهو المستثنى منه؛ لأن الاستثناء إخراج يحتاج إلى مخرج منه، فنقول: "ما قرأ إلا علي"؛ أي ما قرأ أحد. حين نتأمل المعنى وراء التركيب نجد رأس هذا المعنى هو النفي، إنّه هو الذي يطلّ عليك أولا من التركيب[8].

لقد اعتمدت في القرآن الكريم "إلاّ" أداة وحيدة لإفادة القصر، إمّا لسبب معنويّ، ذلك أن الاستثناء فيها أقوى مما في أختيها "غير" و"سوى"، نشعر به في قوله تعالى على وجه التمثيل: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: 26]، القصر في التركيب الشريف قويّ يضعف إذا استعملنا "غير" أو "سوى" بدلا من "إلاّ"، ذلك ما نلمسه على المستوى الصّوتي، ونزعم أن هذا راجع إلى التّضعيف في "إلاّ" الذي أكسبها شدّة وقوّة على خلاف "غير" و"سوى" فإن فيهما خفّة وضعف، وقد يكون هذا راجع لأسباب نحوية.

لنأخذ أيضا على سبيل التّمثّل الآيتين الشّريفتين، قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: 132]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [سورة البقرة، الآية: 275]، فإنّه لا يستقيم بغير "إلاّ"، ثمّ إنّ "غير" و"سوى" من المبهمات المفتقرة إلى الإضافة فلا تصلح بعدها بعض الوظائف: كالحال، والمفعول لأجله، والمفعول المطلق[9].

حصرت طرق القصر البلاغي عند البلاغيين غالبًا في طرق أربعة أو خمسة:

1- النّفي والاستثناء.
2- إنّما.
3- التّقديم.
4- ضمير الفصل وتعريف المسند.

الموضوع الرّئيس: الطرق التي خصّ بها تركيب القرآن الكريم والتي لم يعهدها البلاغيون تفطّن إلى أغلبها محمد الطّاهر بن عاشور ورصدها في تفسيره التّحرير والتّنوير، ومن ذلك:

أولا: قصر العلم المضاف: يقول الله جلّ شأنه: ﴿...إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ

تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [سورة: الأعراف، الآية: 163]، ذلك أن المفسّر أشار إلى أنّ القصر استفيد في هذه الآية من اسم العلم المضاف "سبتهم"، بمعنى العلم لليوم المعروف بهذا الاسم من أيام الأسبوع، وإضافته إلى ضمير "هم" اختصاصه باليهود تعريضا لهم لاستحلالهم حرمة السبت[10].

ثانيًا: قصر الملازمة، في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾ [سورة الأعراف، الآية: 50]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [سورة: الواقعة، الآية: 08-09]، وغير هذين الآيتين كثير في نظم القرآن الكريم. أوضح الشّيخ محمد الطّاهر أن لفظ "أصحاب" مؤذن بالملازمة، ملازمة النّار أو الجنّة عليهم[11]. ومنه كذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [سورة: النّساء، الآية: 47].

ثالثًا: قصر مستفاد من فعل "أنزل" الخاص بالذات العليّة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 07]؛ أي أنزل عليك القرآن، بحيث ذهب المفسر أن فعل "أنزل" مختص بالله تعالى، ولو بدون صيغة القصر – بخاصة عند ارتباطه بالقرآن الكريم– إذا الإنزال يرادف الوحي، ولا يكون إلا من الله بخلاف لو قال: «هو الذي أتاك الكتاب»[12].

رابعًا: قصر باعتبار المصدر فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة: الأنبياء، الآية: 87]، ﴿سُبْحَانَكَ﴾، هذا المصدر المختصّ بالله، بحيث لا يقال إلاّ لله تعالى، فلا كمال ولا تنزيه إلاّ له سبحانه.

خامسًا: القصر المستفاد من لفظ "الآن"، فى قوله عزّ وجلّ: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا...﴾ [سورة: الأنفال، الآية: 66]. ...الآن...؛ أي زمن نزول الآية، وهو الوقت الذي علم الله عنده انتهاء الحاجة إلى ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين، بحيث صارت المصلحة في ثبات الواحد لاثنين لا أكثر؛ أي الواحد لاثنين لا غير، ويمكن أن نقول هذا لهو لا لغيرهم، وفي هذا الزمان لا غير– رفقا بالمسلمين واستيفاء لعددهم، ولما أريد تعيينه للزمان الحاضر لازمته لام التعريف بمعنى العهد الحضوري[13]، وقول عزّ وجلّ: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة: يوسف، الآية: 51]، بحث تأثّرت المشاعر ونطقت: الآن حان ساعة الحقّ لا غير، بحيث ينبغي الاعتراف والصّدق.

سادسًا: القصر المنجز بلفظ "حرثكم"، يقول عزّ وجلّ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [سورة: البقرة، الآية: 223]؛ أي حرث لكم لا لغيركم، تخصيص للأزواج.

سابعًا: الخروج عن طريق العطف المعروفة – والتي لا تعدّ طريقا بلاغيا لأنه مصرح بالقصر نطقا ومعنى كقول القائل: «الأرض متحرّكة لا ثابتة» –، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [سورة: الشورى، الآية:06]، أي إن الله حفيظ عليهم لا أنت، أي لا تخشى أن نسألك على عدم اهتدائهم، إذا ما عليك إلا البلاغ.

وإذ قد كان الحفيظ الوكيل بمعنى كان إثبات كون الله حفيظا عليهم وكون الرسول – صلى الله عليه وسلم– وكيلا عليهم مفيد قصر الكون عليهم على الله تعالى دون الرّسل بطريق غير أحد طرق القصر المعروفة[14]. والقصر بهذا ألصق بالقصر البلاغي للطاقة التّركيب الشّريف وبديعه.

ثامنا: قصر باعتبار القيد، في مثل قول الله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [سورة: البقرة، الآية: 91]، يقول المفسّر: «فالنّظم الشّريف به قصر باعتبار القيد، أي هو المخصوص بكونه حقّا مع كونه مصدّقا، فإن الكتب السماوية الأخرى حقّ ولكنّها ليست مصدّقة لما معها[15]». على أن بعض المفسّرين يرون بأنّها مصدّقة لبعضها.

تاسعًا: قصر باعتبار حال المتكلّم لا المخاطب، ويأتي هذا في الغالب في مقام الدّعاء والتّضرع، كما ورد في الآية على لسان نوح عليه السّلام: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة: الأنبياء، الآية: 87]، أي أنا ليس غيري.

تضمّن هذا الدّعاء من كمال التّوحيد والعبودية في ثلاثة مطالب عظيمة:

1- إثبات كمال الألوهية واختصاصها بالله عزّ وجلّ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ﴾ .

2- إثبات كمال التّنزيه لله تعالى عن كلّ نقص، وعيب، وسوء. والمتضمّن لكماله تعالى من كلّ الوجوه :﴿سُبْحَانَكَ﴾.

3- الاعتراف بالذّنب والخطأ المتضمّن لطلب المغفرة، المستلزم لكمال العبادة من الخضوع، والذلّ لله تعالى :﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[16].

ولا بأس أن نقول: إن في التركيب الشريف (الدعاء) ثلاثة أنماط من القصر :

1- ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ﴾. بأحد طرق القصر المعروفة (طريق النفي والاستثناء).

2- ﴿سُبْحَانَكَ﴾، فلا يقال هذا المصدر إلاّ لله تعالى، فلا كمال ولا تنزيه إلاّ له سبحانه.

3- ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وقد أشرنا إلى ذلك.

عاشرًا – قصر لا باعتبار المخاطب ولا المتكلّم وإنّما يأتي لمحض التّوكيد وإفراغ الحقيقة في قالب متين، كذلك الذي يستخدم في مقام المجاراة والمضادّة للخصم في قوله تعالى: ﴿... قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ...﴾ [سورة: إبراهيم، الآية: 11]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [سورة: الأنعام، الآية: 145] [17].

وممّا تجدر الإشارة إليه تواتر تراكيب متشابهة في الخطاب الشّريف تختلف زيادة

ونقصانا أو من حيث تقديم لفظ على آخر وغالبا ما تكون من حقل دلالي واحد، نورد بعضا منها على سبيل التمثيل، قوله تعالى:

- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ
- وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا
- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة: النّساء، الآية: 132].

جاء هذا التّركيب الشّريف ثلاث مرات متتاليات متّحدة لفظا ومعنى وأصليا ومختلفة تبعا لأغراض الكناية المقصودة منها وذلك لاختلاف السّياق، مع الإشارة إلى أن هذا التّركيب قد تواتر كثيرا في الخطاب القرآني، ومع التّعليلات الواردة في ذلك: الآية الأولى واقعة موقع التّعليل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [سورة: النساء، الآية: 116]. والآية: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [سورة: النّساء، الآية: 116]، كما وقعت احتراسا للآية: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [سورة: النّساء، الآية: 125]،.

- والآية الثانية واقعة موقع التّعليل للآية: ﴿... يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ [سورة: النساء، الآية: 130]،.
- والآية الثّالثة علّة للجواب المحذوف وهو جواب قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ [سورة: النساء، الآية: 131]، فالتقدير وان تكفروا فإنّ الله غنيّ عن تقواكم وإيمانكم، فإنّ له ما في السّماوات وما في الأرض.
- والتّركيب الشّريف الرّابع، عاطفة على مقصر معطوف على جواب الشّرط تقديره: وإن تكفروا بالله وبرسوله فإنّ الله وكيل عليكم ووكيل على رسوله وكفى بالله وكيلا[18].
- وفي آية التوحيد التي ذكرت في القرآن أكثر من ثلاثين مرة (30)، ومن ذلك:
- ﴿... لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة: الأنعام، الآية: 102].
- ﴿... خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة: غافر، الآية: 62].

التّركيب الأول ذكر الله قبله "الشركاء والبنين والبنات"، فدفع قول القائل: "لا إله إلا هو" ثم قال بعدها ﴿خالق كل شيء﴾.

والتّركيب الثّاني ورد قبله ذكر الخلق: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة: غافر، الآية: 57]، فخرج الكلام على إثبات خلق الناس على نفي الشّريك[19].

- وفي سياق نظرة القرآن الكريم إلى الحياة الدنيا وقفنا على مثل هذه التراكيب الشريفة.
- ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [سورة: الأنعام، الآية: 32].
- ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ [سورة: محمد، الآية: 36].
- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[سورة: الحديد، الآية: 20].
- ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [سورة: العنكبوت، الآية: 64].

قدّم الحقّ سبحانه اللّعب على اللّهو في الأنعام بموضعين، وكذلك في سورة القتال والحديد، ويرجع ذلك المفسّر إلى أنّ اللّعب زمانه الصّبا واللّهو زمانه الشّباب، وزمان الصّبا مقدم على زمان الشّباب، يبيّنه ما ذكر في الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، لعب كلعب الصّبيان، ولهو كلهو الشّباب وزينة كزينة النّسوان، وتفاخر كتفاخر الإخوان، وتكاثر كتكاثر السّلطان.

- وفي العنكبوت قدّم اللّهو على اللّعب، يرجع المفسّر ذلك إلى أن المراد بذكرها زمان الدّنيا وأنّه سريع الانقضاء قليل البقاء، بدأ يذكر اللّهو لأنّه في زمان الشّباب وهو أكثر من زمان اللّعب وهو زمان الصّبا[20].

- وفي سياق الإشادة بالقرآن الكريم وقفنا على بعض من هذه التراكيب:

- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة: الأنعام، الآية: 90].
- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة: يوسف، الآية: 104].
- في الآية الأولى لفظ الذكرى، لأنه أليق بالسياق الذي وردت فيه الآية 14.
- وفي سياق تسفيه الكفّار وكشف نواياهم، تطالعنا تراكيب شريفة:
- ﴿ما لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [سورة: الزخرف، الآية: 20]
- ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ [سورة: الجاثية، الآية: 24].

يقول المفسر: الآية في سورة الزخرف متصلة بقوله تعالى: «وجعلوا الملائكة الذين هم عند الحرمان إناثا»، بمعنى أنهم قالوا: الملائكة بنات الله وإن الله قد شاء منّا أن نعبدهم، وهذا جهل منهم يناسبه الخرص[21]، (الكذب).

وفي آية الجاثية خلطوا الصّدق بالكذب، فإن قولهم «نموت ونحيا» صدق؛ أي يموت السلف ويحيا الخلف وهي كذبك إلى أن تقوم الساعة، وكذبوا فى إنكارهم البعث بقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ولهذا قال الحق ﴿إِنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ﴾، أي هم شاكون فيما يقولون مهما يكن من التفسيرات والتأويلات التي تعطى لهذا التباين في هذه التراكيب لاختلاف سياقاتها وهي كثيرة في الخطاب القرآني، يجعلنا نقول: إنَ لأمر يحتاج إلى إفرادها ببحوث ودراسات جادة، إذ الكشف عنها يعدّ من أدقّ أسرار البلاغة القرآنية، ونحسب أن هذا من إثراء البحث اللّغوي.

ومن أمعن النظر في تراكيب القرآن الكريم يلحظ وجود قصر أو أكثر يجتمعان في تركيب واحد وبطرق مختلفة كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [سورة: البقرة، الآية: 120.]

اجتمع في التركيب الشريف قصران: ضمير الفصل "هو"، وتعريف الجزأين "هو الهدى"، يقول الشيخ الطاهر: «والجمع بينهما أفاد معنى تحقيق القصر وتأكيده للعناية، فأيهما اعتبرته طريق قصر كان الآخر تأكيدا للقصر والخبر أيضا».

وقوله سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة: الجاثية، الآية: 36].

قصر بطريق التقديم "لله وله"، قصر بالتعريف "الحمد" و"هو العزيز"، كل هذا اجتمع في آية واحدة فيها من التأكيد والتعظيم ما لم يبلغه تركيب عربي، رغم أن كل قصر يؤكد الآخر إلا أن كل قصر يختص بصفة معينة هي من هذا الكل: (الحمد، الثّناء، الكبرياء، العزّة). [22]

وقد يجتمع تأكيدان فيلغي أحدهما الآخر، يقول تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [سورة: الرعد، الآية: 40]

اجتمع في التركيب "التقديم" و"إنما"، يقول المفسر: "قد تلغى الدلالة على القصر في التقديم إذا اجتمع التقديم مع إنما تبعا للسياق، لنرى؟ المراد في التركيب الشريف الأول قصر مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم على التبليغ بحيث لا يتعداه إلى الحساب ونحوه، وهذا يناسب أن يكون المقصور عليه "البلاغ"، والمقصور "عليك"؛ أي الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا معناه أن الطريق هو "إنما" ودلالة التقديم ملغاة، وإنما جاء لتأكيد القصر وتقويته.

أمّا الشّطر الثاني من الآية: ﴿وعلينا الحساب﴾، فهو قصر الحساب على الله سبحانه لا يتجاوزه إلى غيره، فالمقصور عليه هنا هو "علينا"؛ الله والمقصور هو "الحساب"، وهذا معناه أن الطّريق هو "التّقديم، إذ المقصور علية في هذا الطّريق يكون دائما متقدّما[23].

خاتمة: هكذا نرى أن الخطاب القرآني استوعب طرق القصر البلاغي كما تناولها البلاغيون وزاد عنها فيوضات ولطائف وأسرارا لم تكن في غير هذا الخطاب الشّريف.

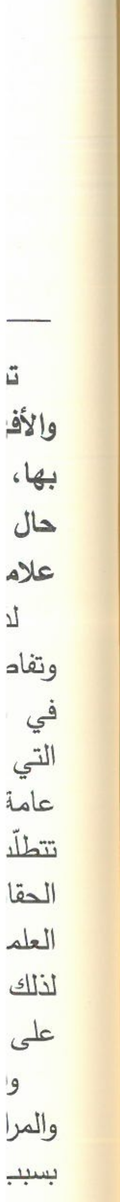
ذلك ما ألفيناه ونحن نستقرئ آي الذكر الحكيم بصحبة بعض التّفاسير، فوقفنا على أنواع من القصر لم تؤلف عند البلاغيين، بل اختصّ بها نظم القرآن في ما نزعم، ونحسب بهذا أنّنا قد فتحنا بابا للأخذ والرّدّ والبحث العملي، من هذه الأنواع كما أشرنا:

- قصر العلم المضاف، على ما قلته.
- قصر الملازمة، وهو كثير في القرآن.
- قصر بألفاظ متعلّقة بالله جلّ وعلا، (أنزل – سبحان)، أو خاص بأفراد معينين، أو زمان أو مكان معين؛ (حرثكم – قصر القيد)
- قصر باعتبار حال المتكلم لا المخاطب، وقصر لمحض التوكيد وإفراغ الحقيقة في قالب متين.

وما رأيناه من لطائف تشدّ المرء إلى مدارسة الخطاب الرّباني الذي بزّ قواعد البلاغة متحدّيا البلاغيين بأساليب أعظم وأروع، ذلك أن أسلوب القصر ينزع إلى الإيجاز- والإيجاز هو البلاغة – والصّرف عن الاحتمالات؛ أي هو نفي وإثبات في الوقت نفسه وجميع هذا مثبت في ما أوردناه من أنواع، فهلاّ دارسنا القرآن وأفدنا من درره.

***

Résumé: le style de la limitation est l'une des méthodes rhétoriques remarquable, une section de la sémantique, des significations secondaires, qu'on définit par: spécifier quelque chose de quelque chose par des moyens spécifiques. Or dans le Coran, ce style est conçu différemment aux moyens habituels chez les rhétoriciens ce qui nous



a incité à l'aborder dans notre recherche, dans le but de déceler ses secrets rhétoriques à travers ces méthodes.

Mots-clés: la limitation – le Coran – les méthodes – les blagues.

***

الإحالات:

* **مخبر التّراث الثّقافي واللّغوي والأدبي بالجنوب الجزائري- جامعة غرداية – الجزائر**

01 ينظر، ابن منظور، معجم لسان العرب، ط01، 1988 دار إحياء التراث العربي للطباعة والنّشر والتوزيع، بيروت، مادة (ق.ص.ر).

02 الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981.

03 السكاكي سراج الدين، مفتاح العلوم، مطبعة التّقدّم، مصر، 1348.

04 ينسب البيت إلى الشّافعي، قاله لتلميذه الرّبيع.

05 المراغي أحمد مصطفى، علوم البلاغة (البيان و المعاني والبديع)، دار القلم، بيروت، لبنان. ص 154.

06 ينسب البيت إلى الفضّل بن المهلّب بن أبي صفرة.

07 سعدي الزبير، العلاقات التركيبية في القرآن (دراسة وظيفية)، دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 1989.

08 أبو موسى محمد محمّد، دلالات التراكيب، (دراسة بلاغية)، ط02، مكتبة وهبة، 1987، ص104-105.

09 ربيعة الكعبي، التركيب الاستثنائي في القرآن الكريم (دراسة أسلوبية بلاغية)، ط01، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص115.

10 ابن عاشور الطاهر، تفسير التّحرير والتّنوير، تفسير التحرير والتنوير، الدّار التونسية للنّشر، الأعراف 163.

11 ابن عاشور الطاهر، المرجع السابق، ص 4/ 144-147.

12 نفسه، ص 3/ 153-154.

13 نفسه، ص 01/ 671.

14 نفسه، ص 12/ 34-35.

15 نفسه، ص 1/ 606-608.

16 http://a.top4top.net/d_d8c2cecb151.mp، ينظر، منتديات الجلفة لكل الجزائريين.

17 نفسه، ص 4/ 136-141.

18 نفسه، ص 5/ 221.

19 الكرماني محمود بن حمزة، أسرار التكرار في القرآن، تح: عبد القادر أحمد عطا، ط 01، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1983، ص47.

20 ابن عاشور الطاهر، المرجع السابق، ص 3/ 192-195.

21 الكرماني محمود بن حمزة، المرجع السابق، ص 191.

22 ابن عاشور الطاهر، المرجع السابق، ص 1/ 671.

23 أبو موسى محمد محمّد، المرجع السابق، 168.

***



الرئيس هواري بومدين برفقة الرئيس جمال عبد الناصر